

ترك توفيق صايغ ثلاث مجموعات شعرية نشرت جميعها في بيروت . اولها «ثلاثون قصيدة» (٣) صدرت في العام ١٩٥٤ . وثانيها «القصيدة ك» (٤) ونشرت في العام ١٩٦٠ . والثالثة هي «معلقة توفيق صايغ» (٥) وصدرت في العام ١٩٦٣ . ثم نشر توفيق بعد ذلك قصائد أخرى في المجلات ولكنها لم تجمع بعد ، كان آخرها مجموعة من قصائد الحب بعنوان «أيضا وايضا» نشرت في آخر عدد من اعداد مجلة «حوار» في آذار - نيسان ١٩٦٧ (٦) .

ركز توفيق في جميع اعماله الشعرية على ثلاثة جوانب رئيسية في وعيه الشعري يوحدنا موضوع واحد : تلك الجوانب هي الوطن والحبية والخالق ، وذلك الموضوع هو الحب . الا انه لحظة ما يصل الشاعر الى ذروة الاحساس وقمة الوعي وأسمى درجات رقة الشعور تتداخل الجوانب الثلاثة معا وقد تفهم القصيدة عندها على مستويين او حتى ثلاثة مستويات من المعنى بالقدر نفسه . وبصير موضوع الحب الذي يعم شعر توفيق عميقا لدرجة يتحول معها من عاطفة متأججة الى كراهية ظاهرية .

وفي حُضم هذا الحب الشديد يظهر الوطن وكأنه موضع كراهية بسبب تأخره مقابل ماضيه المجيد ، كما يظهر وكأنه موضع انتقاد وتأييب بسبب خضوعه للزعامة المستبدة وتعميره للمثل السامية . ومن اعماق هذا الحب الشديد ايضا ينظر الى حبيبته القاسية وكأنها حاملة العذاب والموت ، ويرى في رغباتها الجسدية وشهوانيتها خطيئة قاتلة لا يد من تجنبها . ومن حرارة هذا الحب ايضا نظر أخيرا الى الله وكأنه «حارس السماء» الذي يتبع الشاعر بلا كلل مراقبا ضعفه وخطيئته .

اذلك قد يكون من الانسب القول ان الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله شعر توفيق هو الاغتراب : الاغتراب تجاه الوطن والاغتراب تجاه الحبية والاغتراب تجاه الله . يصح قول ذلك اذا ما فهمنا ان اغتراب الشاعر أمر لا خلاص منه ، مبعته الحب الذي يراه الشاعر مشوها تشويها مأساويا ، ومحطما تحطيمها مستمرا بواسطة ظُرف الانسان او ضعفه ، وسببا دائما للمعاناة ، لذلك فان شعر توفيق هو صرخة مثالة تعبر عن وضع الانسان وتستحق الاهتمام والانتباه لانها تلقي ضوءا على روح الانسان في القرن العشرين .

لنتناول الجوانب الثلاثة الان بشيء من التفصيل .

الوطن : فلسطين هي الوطن الذي نشأ فيه توفيق طفلا وترعرع شابا . ان بحيرة طبرية والناصرة وجبل تابور والمجدل وبيت عنيا والقدس وبيت لحم كانت بالنسبة لتوفيق أكثر من أسماء لاماكن على الخارطة وأكثر من تذكيرات ورد اسمها في الكتاب المقدس وفي «مدرسة الاحد» . تلك أجزاء من كينونته عملت على تكوين ذاته الواعية وغير الواعية التي عبر عنها في شعره فيما بعد . لقد أحب وطنه وتذكر اللحظة الحزينة التي طرد فيها من وطنه في العام ١٩٤٨ . ان صور تلك اللحظة المأساوية تتردد كلما نظر الى الوراء الى حياته المضطربة في «معلقته» التي نظمها في العام ١٩٦١ . يقول توفيق :

حياتي تلاحق نار ونار ، / زمني أؤرخه بالنار ، / تشمط وتاكل ، / تشخذ السيوف .

ثم يقول بعد رجوعه من القدس الى طبرية :

هربا من النار جئنا الماء . / من رنسة بالظهر الى / فراعين في انتاج . / هربا من النار المدنسة / جئنا المياه المقدسة ، / تضرب حيطان بيتنا / نثرها بلا تصفية . / يسوع الشيخ / عاد فقيا يلاعيني ، / اله الصلوات الطوال البعيد / انتشلني لدياره / جعلها ديارى .

لها عن لجوئه الى لبنان فيقول في مكان آخر من القصيدة ذاتها :